

قراءة في كتاب مفهوم النص الديني

لنصر حامد أبو زيد

بلقصور مصطفى

باحث في الفلسفة جامعة سعيدة

1- التعريف بالمفكر

1-1- نشأته وحياته:

- ولد في إحدى قرى طنطا في 10 يوليو 1943.
- تحصل على دبلوم المدارس الثانوية الصناعية قسم اللاسلكي عام 1960م
- التحق بالجامعة وحصل على الليسانس من قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة 1972م بتقدير ممتاز
- الماجستير في الدراسات الإسلامية عام 1976م بتقدير ممتاز.
- الدكتوراه الدراسات الإسلامية عام 1979م بتقدير مرتبة الشرف الأولى.

2-1- تدرجه الوظيفي:

- فني لاسلكي بالهيئة المصرية العامة للاتصالات السلكية واللاسلكية 1961 - 1972م
- معيد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1972م
- مدرس مساعد كلية الآداب، جامعة القاهرة 1976.
- مدرس بكلية الآداب، جامعة القاهرة 1982
- أستاذ مساعد بكلية الآداب، جامعة القاهرة 1987
- أستاذ زائر بجامعة ليدن بهولندا 1995.

3-1- وفاته :

عاد إلى مصر قبل أسبوعين من وفاته بعد إصابته بفيروس غريب فشل الأطباء في تحديد طريقة علاجه، ودخل في غيبوبة استمرت عدة أيام حتى فارق الحياة صباح الإثنين 5 يوليو 2010

4-1- أهم مؤلفاته :

- فلسفة التأويل: دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين العربي 1983
- مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن 1990
- الإمام الشافعي: وتأسيس الأيديولوجية الوسطية 1992
- التفكير في زمن التكفير: ضد الجهل والزيغ والخرافة 1995
- نقد الخطاب الديني: رؤية نقدية 1995
- هكذا تكلم ابن عربي 2002
- الاتجاه العقلي في التفسير: دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة 2007.

2- كتاب مفهوم النص الديني:

في عام 1990 صدر الدكتور نصر حامد أبوزيد بكتابه الموسوم " مفهوم النص ، دراسة في علوم القرآن " بطبعته الأولى عن المركز الثقافي العربي في بيروت، وهو أهم محاولة في تأويل وفهم دراسة القرآن الكريم، طبع منه أكثر من ثمانية طبعات، وهو خلاصة قراءة للنص القرآني وفق المناهج الهرمينوطيقية الحديثة. يصنف ضمن علوم القرآن (دراسة القرآن والعلوم المتصلة به: أسباب النزول، المكي والمدني..الخ).

" تستهدف هذه الدراسة تحقيق هدفين: أما أولهما فهو إعادة ربط الدراسات القرآنية بمجال الدراسات الأدبية والنقدية، بعد أن انفصلت عنها في الوعي الحديث والمعاصر، وذلك نتيجة عوامل كثيرة أدت إلى الفصل بين محتوى التراث وبين مناهج الدرس العلمي، والحقيقة أن دراسة القرآن من حيث كونه نصا لغويا، أي من حيث بناؤه وتركيبه ودلالته، ومن حيث دلالاته وعلاقته بالنصوص الأخرى في ثقافة معينة دراسة لا إنتماء لها إلا لمجال الدراسة الأدبية."¹

بينما إنقسمت آراء المفكرين حول كتاب مفهوم النص الديني إلى موفقين والموقف الأول: يرى أن حامد أبوزيد وفق للإبداع في مجال علوم القرآن من جهتين:

1- التراث الإسلامي : لم يكن أسير التراث الإسلامي في كتابه مفهوم النص.

2- التراث الهرمينوطيقي : تجاوز الهرمينوطيقا الحديثة في الغرب.

ومن بين من مثلوا هذا الموقف المفكر العربي حسن حنفي (1955م)

¹ - نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1990، ص 21

الموقف الثاني: يرى أن حامد أبو زيد ليس بهذا الحجم بل قدم تصورات يمكن أن نجدها في التراث الإسلامي.

علما أن علوم القرآن حتى نهاية القرن العاشر ترجع إلى مصدرين أساسيين هما:

- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي (1344 م - 1392 م)

- الإنشقاق في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي (1445 م - 1505 م)

3- منهج دراسة القرآن عند حامد أبو زيد

يؤكد على وجود منهجين في دراسة القرآن سائدان إلى اليوم في العالم.

1- المنهج الإيديولوجي الديني: وهو منهج غيبي أسطوري، لا يندرج وفق المنهج العلمي الحديث.

يتبنى أشياء ثابتة سلفا يحملها على كل شيء، فهو يقرأ النص القرآني بوصفه نصا إلهيا من عند الله، وهو مرفوض عند حامد أبي زيد.

“ وإذا كان الحل السلفي - في حقيقته وجوهره - يتنكر دون أن يدري لمقاصد الوحي واهداف الشريعة حين يفصل النص عن الواقع. وذلك بالمطالبة بتطبيق نص مطلق على واقع مطلق”²

2- المنهج العلمي: منهج علمي منطقي. يتعامل مع النص القرآني بوصفه نصا أدبيا، ويحلل النص مباشرة دون الأخذ بالإعتبار صاحب النص.

“ إن الدراسة الأدبية - ومحورها مفهوم “النص” - هي الكفيلة بتحقيق “وعي علمي” نتجاوز به موقف “التوجيه الإيديولوجي” السائد في ثقافتنا وفكرنا. والبحث عن هذا المفهوم وبلورته وصياغته لا يمكن أن يتم بمعزل عن قراءة القرآن قراءة جديدة باحثة منقبة. إن موقف الخطاب الديني المعاصر من علوم القرآن وعلوم الحديث كذلك هو موقف التردد والتكرار، إذ يتصور كثير من علمائنا إن هذين النمطين من العلوم يقعان في دائرة العلوم التي نضجت واحتقرت حتى لم يعد فيها للخلف ما يضيفه للسلف”³.

4- إشكالات على المنهج.

يرى المفكر د. علي حرب (1941م) أن حامد أبو زيد أخطأ في إعتباره المعيار العلمي الوحيد في قراءة النص هو المعيار الأدبي. ويؤكد هذا الإشكال د. محمد أركون (1928م - 2010م) حين يرى أن معيار دراسة النص القرآني هو مجموع العدة العلمية المعاصرة: (علم الاجتماع، علوم اللسانيات المختلفة، علم التاريخ والنقد التاريخي، الأدب، الأنثروبولوجيا.. الخ) أي مجموع العلوم الإنسانية. ولقد غفل نصر

² - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 18.

³ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 13.

حامد أبوزيد عن ما يسمى اليوم بإيديولوجيات العلم، فحتى المنهج العلمي صار عند كثير من المفكرين إيديولوجيا، كاللغات الدينية يرون أنه لا يجب التخلي عنها.

5- أساسيات المنهج عند نصر حامد أبوزيد

1-5- التفريق بين المنهج الديني والإيديولوجي والمنهج العلمي في دراسة النص.

“ ولعل الحديث عن دور الواقع والثقافة في تشكيل هذه النصوص يمثل نقطة الانفصال، وربما التداور، بين منهج هذه الدراسة وبين المناهج الأخرى التي يتبناها الخطاب الديني المعاصر عند مناقشة هذه القضايا حيث تعطى الأولوية عند مناقشة النصوص الدينية للحديث عن الله عزوجل (قائل النص) ثم يلي ذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم (المستقبل الأول) للنص ثم يلي ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين، أسباب النزول، والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ”⁴.

2-5- منطلقات المنهج:

ينطلق حامد أبوزيد من مرجعيات من التراث الإسلامي (عبد القاهر الجرجاني (1009-1978)- بدرالدين الزركشي (1344 م – 1392م)- جلال الدين السيوطي (1445م-1505م)-فخر الدين الرازي (1150م-1210م)، يحشد منها مؤيدات لكلامه أي من داخل التراث الإسلامي يبني مشروعه. مقابل محمد أركون وعلي حرب الذين يعلنون ما يسمونه بالقطيعة فالموروث لا يعطي الشرعية في التعامل مع النص.

“ التراث هو نقطة البداية كمسؤولية ثقافية وقومية، والتجديد هو إعادة تفسير التراث طبقا لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد، والأصالة أساس المعاصرة”. “ إن التجديد يقوم على أساس وجود أصل قديم”⁵.

3-5- دراسة أنطولوجيا النص

يرى حامد أبوزيد أنه قبل قبل دراسة دلالة النص يجب دراسة أنطولوجيا (وقائعية النص)، يعني النص موجود وتعاملنا معه كموجود مادي، فعلينا أن نترك ما هو قيمي الذي يختزنه النص (الملائكة، الآخرة، الأنبياء...الخ)، ونحلله أدبيا وتعامل معه أنطولوجيا.

“ إن النص يصف نفسه بأنه رسالة، والرسالة تمثل علاقة إتصال بين مرسل ومستقبل من خلال شفرة، أو نظام لغوي، ولما كان المرسل في حالة القرآن لا يمكن ان يكون موضوعا للدرس العلمي، فمن الطبيعي أن يكون المدخل العلمي لدري النص القرآني مدخل الواقع والثقافة، الواقع

⁴ - نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص29

⁵ - نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص18-19

الذي ينتظم حركة البشر المخاطبين بالنص وينتظم المستقبل الأول للنث وهو الرسول، والثقافة التي تتجسد في اللغة. بهذا المعنى يكون البدء في دراسة النص في بالثقافة والواقع بمثابة بدء بالحقائق الإمبريقية"⁶.

6- وقفات مع أنطولوجيا النص عند نصر حامد أبو زيد.

1-6 الحروف المقطعة (آلم - طه - كهيعص - حم)

يذكر المفكر ثلاثة عشرة تفسيراً من التراث ويصفها بأنها إيديولوجية وهي مرفوضة حسب رأيه. يرى أن هذه الأحرف ليست لها دلالات، ولا تبحث عن دلالات في النص. ينبغي التعامل معها كموجودات، أي أن القرآن يريد أن يلقي كلمة غير مفهومة (أنا موجود متمايز)، مختلف عن بقية النصوص. الحروف ليس لها معنى، وبمجرد وجودها فهي معنى على نحو من إعلان وجود، إن القرآن حسب مفكرنا دائماً يعتمد أن يبين أنه نص ممتاز متباين عن النصوص العربية.

إذا يجب أن نفهم الحروف المقطعة فهما أدبيا، كأديب يريد أن يقدم مقطوعة-قصيدة ليس لها نظير في الساحة تلفت الأنظار لا على أنه يريد أن يجلب الناس إلى الدين.

" إن النص في إطلاقه هذا الإسم على نفسه ينتسب إلى الثقافة التي تشكل من خلالها، ولكنه في نفس الوقت يفرض تميزه باختيار هذا الإسم غير المؤلف تماماً من حيث صيغته وبنائه"⁷.

2-6 ممكن الإعجاز في القرآن

القرآن ولد في الثقافة العربية، فهو منتج ثقافي، أي فهو وليد الثقافة العربية. أن صاحب النص (الله عز وجل) بعد هيمنته على الإنسان وفكره نظر إلى المجتمع العربي ، فأراد إعادة بناء الإنسان فماذا فعل؟

أوجد نظام اللغة (نظام التفكير)، وحسب مفكرنا صاحب النص أراد أن يؤسس ثقافة جديدة، فبدأ من اللغة باعتبارها نظام التفكير الوحيد، فأوجد القرآن من بطن اللغة العربية. لكن ماذا فعل معها؟

قام بتقوية اللغة، أخضعها للتطوير (الصلاة، الزكاة، الإيمان الهدى...الخ) كلها تغيرت بنسبة كبيرة جدا وتولدت دلالات جديدة مع مرور الزمن. وهكذا حسب عبارات حاد أبو زيد، هيمن النص القرآني على العقل وهذه قوته التي تميزها عن عصى موسى عليه السلام، بامتلاكه لنظام اللغة وصار أكبر مرجع لغوي في العربية.

⁶ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 27

⁷ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، ص 60.

3-6- نظرية قدم القرآن عند الأشاعرة:

يرفض حامد أبو زيد نظرية الأشاعرة القائلة: أن القرآن قديم قدم الله تعالى، فحيث أن صاحب النص قديم لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحرك فيجب أن يبقى القرآن ساكن صامت، ثابت، جامد، زمن هنا فربطوا بين القرآن والله.

بينما يعتنق نظرية المعتزلة، فيرى حامد أبو زيد أن القرآن محدث، مخلوق كخلق أي شئ آخر ومنفصل عن خالقه بأي معنى من المعاني. لكن لماذا ذهب حامد أبو زيد وبحث في قدم القرآن؟ يريد أن يقول لنا عندنا: الله عزوجل، القرآن وواقع الإنسان. والله صاحب النص ولا تنقطع صلته به، لكن قولنا محدث، يعني أن القرآن داخل الزمان والمكان، متفاعل مع الواقع، وخاضع لنظام الواقع والحياة، فهو متغير بتغير نظام الحياة.

4-6- نماذج من التفسير كدليل على حدوث القرآن:

يعتمد نصر حامد أبو زيد ثلاثة نظريات أنتجت علوم القرآن التراثية في الثقافة الإسلامية تدل على أن هناك جدلية بين النص والواقع وهي النسخ، المكي والمدني وأسباب النزول)، نقتصر فيها على نظرية النسخ.

القرآن تعرض لعشرات المرات للنسخ والتحويل خلال ثلاثة وعشرون سنة. والآن مرت علينا تحولات أكبر بمئات المرات التي وقعت خلال ثلاثة وعشرون سنة في المجتمع العربي. أفليس من الصحيح أن نقول أن نظام النسخ والمنسوخ مستمر وأن الآيات ما زالت تنسخ، علما أن النسخ عند حامد أبو زيد ليس حذف للآية، بل تجميد لها، لأنه من المحتمل أن يموت الناسخ فيعود زمن المنسوخ.